اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الرابع

الفصل الأول

وما تمكنت أن أعرف يوماً حقيقة خلق مركانسون وفطرته من المراوغة أو السذاجة ، غير أنني ما ارتبت قط في أنه يضمر لي البغضاء ويعمل على نكايتي ما وسعه . أما مدام بيارسون فكانت تنيل هذا الرجل قسطاً مما تبذل من مودة لعمه الكاهن وهو جدير بالاحترام . وتملك مركانسون شيء من الغرور لالتفات مدام بيارسون إليه فأصبح غيوراً ، وبعض الناس لا يملكون أنفسهم من الافتتان لكلمة عطف أو لابتسامة تبذل لهم من شفة تفتر عن نور الجمال

ما طرحت أول سؤال على مركانسون حتى بدت عليه من دلائل الدهشة ما بدا على خادمي لاريف وما كنت أنا أقل اندهاشاً منهما مما أفعل ، ولكن من من الناس يدرك ما في أغوار نفسه ؟ ...

وعرفت من أول جواب أورده مركانسون أنه نفذ إلى قصدي وقرر ألا يرضيني إذ قال :

— أنت تعرف مدام بيارسون منذ زمن طويل وتزورها بلا كلفة فكيف لم تصادف المسيو دالانس عندها ؟ ولعل لديك الآن أسباباً أجهلها تدفع بك إلى الاستعلام عنه ، أما أنا فكل ما بوسعي أن أقول عن هذا الرجل هو أنه كريم المحتد ومن أهل الصلاح والبر ، وقد كان مثلك يا سيدي يزور مدام بيارسون بلا كلفة وهو صاحب أملاك واسعة ومضياف في بيته ، وكان مثلك يعزف أجمل القطع الموسيقية عندها وما أعلم أنه قصر في شيء من واجباته في سبيل الإحسان ، فقد كان أثناء وجوده في هذه البلاد يرافق مدام بيارسون في رحلاتها كما ترافقها أنت يا سيدي ، ولأسرة هذا السيد سمعة طيبة في باريس : وكنت كل مرة أزور فيها مدام بيارسون أصادفه عندها . والمعروف عنه أنه حسن السيرة والأخلاق وما أعني بالصداقة التي ذكرتها إلا الصداقة الشريفة اللائقة بأمثال هذا الرجل . وأظن أنه لا يأتي إلى هذه الأرجاء إلا للصيد وقد كان صديقاً لزوج الأرملة ، ويقال إن دالانس ذو ثروة كبيرة وأنه جد كريم ، أما أنا فأكاد لا أعرفه إلا بما سمعت عنه . .

بمثل هذه العبارات المشوشة كان هذا الجلاد الثقيل يجهز علي . ونظرت إليه وهو يتكلم وقد استولى الخجل علي فما قدرت أن أوجه إليه أي سؤال كما عجزت عن وضع حد لثرثرته فذهب في أقواله ، وقد أوردت مثالاً منها ، إلى أبعد حد من النميمة والاغتياب دافعاً بنصله لتعرج إلى قلبي حتى إذا اخترقه إلى أقصاه تولى عني ، فما تمكنت من إمساكه . فذهب وكأنه لم يقل لي شيئاً

وبقيت وحدي على طريق المتنزه أرقب الظلام ينسدل على تلك الأرجاء وأنا أتردد بين عاطفتي الغضب والأسى إذ لم يكن بوسعي أن أعتقد في ضلال هذه الثقة العمياء التي استسلمت لها في حبي لبريجيت فذقت منها مثل هذه اللذة الصافية . وكنت أرى في

اندفعي نحو هـذه المحبوبة اندفاعاً شلت مقاومتي أمامه دليلا كافياً على أنها أهل لتعلق بها ، لذلك كان يصعب على التصديق بأن هذه الأشهر الأربعة الطافحة بالسعادة لم تكن إلا أحلاماً

وتساءلت فجأة فى سريرتى عما إذا كانت هذه المرأة مخلصة عند ماظهرت فى مظهر المتمنع فى حين أنها استسلمت بعد ذلك بسرعة وقد كفت كلمة واحدة لتبديد مقاومتها . ولاح لى أن من شغلتنى لم تكن إلا واحدة من بنات الدلال المغريات أو أن الدلال وسيلة كل امرأة تريد أن تتبع غريزة الدفاع أسوة بكل أنثى

أَمَا باحت بريجيت بغرامها من تلقاء نفسها فى حين اعتقدت أنها أفلتت إلى الأبد من يدي ؟

أَمَا رضيت فى أول يوم عرفتها فيه أن تستند إلى ذراعي قبل أن تعرف من أنا بشيء من الخفة كان على أن أنتبه له لتنبيه ريبتي

إذا كان هذا المدعو دالانس قد توصل إلى امتلاكها فالأرجح أنه لم يزل يتمتع بها حتى الآن ، فإن من هذه العلاقات مالا بداية لها ولا انتهاء فى المجتمع . فاذا ما التقى عاشقان قديمان استسلما لما تعوداه ، وإذا افترقا نسى أحدهما الآخر

إذا كان هذا الرجل يأتى إلى هذه الارجاء فى كل موسم صيف فانها ستجتمع به عند قدومه وقد لا تقطع علاقتها بى

من هي عمة هذه المرأة يا ترى ؟ وما معنى هذه الحياة السرية المستترة وراء أعمال البر والاحسان ؟

ألا تكون هذه المرأة وعمتها من مشعوذات المجتمع تتوسلان إلى اكتساب المقام السامى بهذا البيت الصغير والتظاهر بالوداعة والحكمة ؟ إننى ولا ريب قد علقت فى شرك غاوية وأنا مغمض العينين أحسب أن فى قلبها حباً وهياماً . فما على أن أفعل الآن وليس أمامي سوى هذا الكاهن الذى يتذرع بالابهام تحاشى وإذا أنا لجأت إلى عمه فلا بد أن يكون أشد تكتما منه ؟

من سينقذني من هذه الورطة ؟ من سيمزق ستار الريب فتنجلي الحقيقة لعيني ؟

بهذا كانت تخاطبني غيرتى ، فتنسيني كل ماذرفت من دموع وما تحملت من أوصاب ، فأصبحت وما مر يومان بعد على استسلام بريجيت لي أضطرب لتوصلي إلى التمتع بها وما كنت فى هذا إلا كسائر المتشككين ، أضرب صفحاً عن العواطف والأفكار لأصارع الوقائع نفسها مقدماً على تشريح من أهوى كأنها جثة لا روح فيها

وكانت تجول هذه الأفكار فى دماغى ورجلاي تقودانى إلى مسكن بريجيت ، ولما اجتزت الحاجز الحديدى لاح لى نور من نافذة المطبخ وخطر لى أن أستجوب الخادمة فاتجهت نحوها وأنا ألتمس بعض القطع الفضية فى جيبي ، غير أنى ماوصلت إلى العتبة حتي وقفت واجماً . وكانت هذه الخادمة امرأة مسنة ناحلة حفر العمر فى وجهها أثلاماً وأصبح ظهرها مقوساً لفرط ما انحنى ، ونظرت إليها فاذا هى تعمل فى غسل الأوانى على مصب قذر وفى يدها شمعة ترتجف أشعتها وحولها أوعية الطبخ والصحون وبقايا طعام يحدجه كلب دخل ورائي متجسساً خجولا . وكانت تفوح من الجدران الرطبة رائحة تعفن تملأ المكان ، ولما لمحت الخادمة وجودى حتى ابتسمت ابتسامة معنوية لأنها كانت رأتنى منسلا من غرفة معلمتها عند الفجر ، فارتعشت

والاشمئزاز يملأ نفسي مما أتيت أطلب في هذا المكان من أمر يشبه حقارته . فوليت الأدبار هارباً من هذه المرأة ومن غيرتي كأن الروائح الكريهة المنتشرة هنالك خارجة من قلبي

وكانت ريجيت أمام النافذة تسقي أزهارها وبقربها طفل إحدى جاراتها جالساً بين المساند اللينة وقد أمسك بكمها وهو يسرد لها حديثاً طويلا لا يفهم وفمه محشو بالحلوى ، فتقدمت وقبلت الطفل على خديه كأنني أستعيد لنفسي بعض الطهارة منهما

فستقبلتني ريجيت بشيء من الحذر لأنها رأت شخصها منطبعاً في عيني وقد غشيتها الشكوك وكنت من جهتي أحاذر أن ألتقي بنظراتها لأنني كلما أمعنت في جمالها ومظاهر إخلاصها أذهب إلى القول بأن هذه المرأة شيطان رجيم إذا هي لم تكن ملكا كريماً .

وكنت أستعيد في ذهني كلمات مركانسون لأقابل بينها وبين ملامح عشيقتي وإشراق وجهها الرائع فأقول في نفسي « إنها لبديعة الحسن ولكنها جد خطرة إذا هي أتقنت المخاتلة وسوف تجد خصما عنيداً يقاتلها بمثل سلاحها »

وبعد أن صمت طويلا قلت لها : قبل أن أجيء إليك تلقيت كتاباً من صديق يسألني نصيحة في أمره وهو شاب ساذج يقول إنه اكتشف أن المرأة التي تستسلم له تستسلم أيضاً لعاشق آخر

— وبماذا أجبته ؟

— ألقيت عليه سؤالين وهما : أهي جميلة ؟ وهل أنت تحبها ؟ فإن كنت عاشقاً لها فاتركها ، وإن كانت جميلة ولست ولوعاً بها فاحتفظ بها وتمتع بجمالها ، ولك أن تسرحها حين تشاء إذ ما الفرق بينها وبين سواها ؟

وما سمعت ريجيت كلماتي حتى ابتعدت عن الطفل ومشت أمامي إلى الغرفة وجلست على مقعد لا تصل إليه أشعة القمر ، وكنت أنا أشعر بشدة ما ألقيت من كلمات وقد امتلأ فؤادي مرارة من معانيها القاسية .

وذعر الطفل فبدأ ينادي ريجيت وينظر إليها من بعيد بعين ملؤها الحزن ، وما لبث حتى سكت عن مناغاته واستغرق في النوم على مقعده ، وهكذا حكمنا الصمت نحن الثلاثة ومرت غمامة على القمر حجبت أنواره .

وبعد هنيهة دخلت خادمة تحمل مصباحاً لتأخذ الطفل من مرقده ، فوقفت وريجيت في آن واحد ورأيتها تربط على قلبها براحتيها وتهوي إلى الأرض أمام السرير فهرعت إليها مذعوراً وكانت لم تزل محتفظة بوعيها فرجتني ألا أدعو أحداً وقالت إنها تصاب أحياناً بالخفقان منذ صباها دون أن يكون من هذه النوبات التي لم تجد لها علاجاً أقل خطر على حياتها ؛ وجثوت بقربها ، ففتحت لي ذراعيها فألقيت رأسي على كتفها ، وعندئذ قالت لي : إنني أشفق عليك يا صديقي . فهمست في أذنها : يا لشقاوتي ويا لجنوني ! ولكنني لا أستطيع كتمان أمر تضمره سريرتي . من هو يا ترى المسيو دالانس الذي يقطن الجبل ويأتي لزيارتك أحياناً ؟ ولاحت دلائل الاستغراب على وجهها عند سماعها هذا الاسم فقالت : دالانس هو صديق لزوجي

وحدجتني كأنها تريد الاستفهام عن سبب سؤالي وقد امتقع لونها فعضضت شفتي بأسناني وقلت في نفسي : إذا كانت ترمي إلى مخادعتي فقد أساءت التصرف بإعلان ما أضمرت

ونهضت ريجيت متثاقلة تتمشى في الغرفة

مستروحة بمروحتها وقد تهدجت أنفاسها ، وشعرت بأنى رميتها بسهمى فحكمها الصمت وتلاقت نظراتنا وفيها برود وفيها شيء من العداء . وتوجهت إلى مكتبها وفتحت الدرج وأخرجت منه لفافة أوراق مربوطة بشريط من حرير فألقتها إلى دون أن تفوه بكلمة .

وبقيت ذاهلاً عنها وعن رزمة الأوراق التى ألقتها إلى إذ كنت مستغرقاً كمن طرح حجراً فى هاوية وصمد يتنصت إلى دويه

ولاحت لأول مرة أمامي أمارة الكبرياء الجريحة على وجه ريجيت وقد نمت عنه سطور الاضطراب والاشفاق فشعرت أنى منها تجاه شخص غريب . وقالت اقرأ هذا

فتقدمت نحوها ماداً يدى فكررت قولها : اقرأ هذا — بلهجة باردة .

وشعرت وأنا أقبض على الأوراق أن شكوكي قد زالت فاعتقدت ببراءة ريجيت ورأيتني ظالماً يخترق الندم قلبه .

وقالت : أنت تذكرني بأن على أن أسرد تاريخ حياتي ، اصغ إلي لأقص عليك . وبعد ذلك تفتح أدراج مكتبي لتقرأ كل ما فيها من رسائل كتبتها أنا وكتبها سواى .

وجلست مشيرة إلىّ بالجلوس ورأيتها تتجلد لتبدأ بحديثها وقد علت وجهها صفرة الموت وتشنج عنقها فتهدج صوتها .

فصحت بها : ريجيت ... ريجيت . أستحلفك ألا تتكلمى ويشهد الله أنى ما حلفت على ما ترين وما كنت من قبل لا متشككاً ولا متحدياً . لقد ضللنى الناس وأفسدوا قلبي ، لقد مرت بي غيرة مفجعة ألقت بى إلى الهاوية ، فأنا منذ سنة لا أرى من الحياة إلا شرورها . ويعلم الله أننى ما كنت ، حتى صدمنى هذا الاختبار ، لأعتقد بامكان استسلامى إلى الغيرة وهى أفظع ما يتلقاه الانسان من أدوار الحياة . ليشهد الله أنى أهواك وليس لسواك أن يشفينى من علل أيامى الماضيات وما عرفت فيها من النساء إلا من خدعتنى وكن قاصرات عن إدراك الحب . لقد عشت فيما مضى كعاشق وفى قلبي من التذكارات ما لا قبل لى بمحوها . فما الذنب ذنبي إذا كانت أضعف التهم وأبعدها عن التصديق تقرع من هذا القلب أوتاراً لم تزل تهتز بآلامها وهى مهيأة لقبول أية ضربة تستنطق الأوجاع .

لقد ذكر هذا النساء أمامى اسم رجل لا أعرفه ولا علم لى بوجوده وقيل لى إن شائعات لا طائل تحتها دارت حولك وحوله وأنا الآن لا أسألك شيئاً عن هذا الأمر الذي آلمني لأنى ارتكبت فيه ذنباً لا يغتفر وأتيت معترفاً به أمامك ، وبدلا من قبول ما تعرضينه على سألقى بهذه الأوراق إلى النار

بحقك لا تحاولى تبرير نفسك لئلا أسأل أمام نفسى . لاتنزلى بى العقاب وما لى من ذنب غير فجيعتى وآلامى .

وهل لى أن أرتاب فيك وأنت على هذا البهاء وعلى هذا الاخلاص ؟ فان لفتة واحدة منك تحمل من الإفصاح ما لا يمكن أن أستجلى بنفسى لتثبيت هيامى . آه لو تعلمين بما ابتلى من الفجائع والأكاذيب هذا الفتى الماثل أمامك الآن : لو تعلمين كيف عامله الناس وكيف هزأوا به وبخير صفاته ، وكم اجتهدوا تعليمه كل ما يقود إلى الشكوك والغيرة واليأس !

وآسفاه أيتها الحبيبة ! إنك لا تعرفين من هو هذا

الذي تعشقينه . لا توجهي إلى اللوم والتقريع بل تجلدي وأشفقي على إذ لا بد لي من أن أنسى وجود كل كائن على الأرض إلا اياك فإن أمامي مآزق من الآلام يجب على اجتيازها وما كنت أتوقع أن أراها معترضة على سبيلي تتحدى قواي المجادلة والنضال . إنني ما عرفت ما في ماضيّ إلا منذ ضممتك بين ذراعي إذ شعرت وأنا أضع قبلاتي على شفتيك بما على شفتي من أوضار . المعونة يا بريجيت ! إنني ألجأ إليك فساعديني بحق ربك على الحياة فإن ربك قد خلقني خيراً مما تريني الآن .

وفتحت بريجيت معصميها وضمتني إليها طالبة مني اطلاعها على الوقائع التي أدت بي إلى هذا الموقف ، فما سردت لها إلا ما فيه لاريب لأنني جبنت عن الاقرار لها بأنني استنطقت مركانسون . وعادت فأكرهتني على سماع إيضاحها فقالت : إن دالانس أحبها ولكنها رأت ما هو عليه من خفة وتقلب فأعلنت له أنها لا تقصد الزواج ورجته ألا يعود إلى ذكر عواطفه لتخضع لارادتها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت زياراته نادرة حتى انقطع عنها .

قالت هذا وسحبت من الرزمة كتاباً عرضته علي وهو يحمل تاريخاً حديثاً فما ملكت وجهي من الاحمرار إذ رأيت فيه إثبات ما أعلنته من الحوادث

وأكدت لي أنها تعفو عني غير أنها فرضت علي كعقاب أن أوافيها بلا إبطاء بكل ما يدعو إلى تبين شكوكي فيما بعد وتبادلنا العهد بقبلة ، وعند ما بارحتها عند انبثاق الفجر كنا نسينا أن في الوجود رجلا يدعى دالانس .

الفصل الثاني

إن للعاشقين شيئاً من الركود والأسن يطفو عليه مرح كله مرارة وألم ، وما حالتهم هذه إلا نتيجة حياة تتحكم فيها شاردات الأهواء لا حاجة الأجساد فما جسد الفاسق إلا مطية تفكيره الجموح وما تفيه الارادة وقوة الشباب مغبة التفريط إلا إلى حين ، لأن للطبيعة انتقامها الدساس الخفي وإذا انتبهت القوة يوماً لاستعادة ما هدر منها فإنها تجد الارادة المشلولة تترصدها لتدفع بها من جديد إلى التفريط

إن الفاسق الذي أفلت زمام التمتع من يده لا يجد غير ابتسامة الازدراء يقابل بها كل ما كان يثير شهواته فهو يقتحم ملاذه بثورة الأعصاب لا برصانة القوة . وما يستولي الفاسق على ما يحب إلا عنوة واغتصاباً ، وقد أصبحت حياته ملتهبة محمومة فيلجأ إلى المسكر وإحياء الليالي في المواخير ليرتفع بأعصابه المنهوكة إلى مستوى الملذات

إن مثل هذا الرجل يحس في أيام ضجره وتراخيه بالمجال السحيق بين قوته وشهوته بأكثر مما يشعر به أي رجل آخر ، وإذا ما أراد مقاومة ما حوله من مغريات فإنه يلجأ إلى الكبرياء مستمداً منها الاعتقاد الوهمي بأنه يزدري هذه المغريات ولا يأبه لها

وهكذا لا يني الفاسق متنقلا على ولائم حياته وقد قبض الغرور على عنقه ليجره جراً بين سعار شهوته وكربته حتى يدفعه إلى هاوية الفناء . وبالرغم من أنني كنت أفلت من زمرة الفاسقين فإن جسدي تذكر فجأة أنه كان محسوداً بينهم . وما كنت لأشعر بمثل هذا الانبعاث من قبل ، حين اجتاحني الحزن الشديد لوفاة والدي ثم جاء الحب المبرح يشغلني فولّد الملل

عني وأنا في عزلتي وما يهم المنفرد إن دار به الفرح أو ساورته الأحزان

إن « الزنك » لا يدفع بالشرر الكامن فيه إلا إذا احتك « بالنحاس » الذي وقد جاءت قبلات بريجيت كهذا النحاس تقدح ما كمن في أعماق فؤادي فكنت وأنا أواجهها استجلي حقيقتي فأعرف نفسي

وقد كنت أصبح أحياناً وأنا شاعر بحالة جد غريبة في تفكيري فأحسبني قضيت ليلي في وليمة ترك بي طعامها وشرابها ما أنهك قواي فتتعبني أضعف المؤثرات الخارجية وكل الأشياء التي أعرفها واعتدت النظر إليها تورثني الملل والنفور ، فاذا تكلمت سخرت بأقوال الناس وبخواطري نفسها فكنت أستلقي على مقعد ، مستسلماً للكسل ، معارضاً في تنفيذ ما قررناه من تنزه ، مستعيداً ما كنت قلته فيما مضى لحبيبتي من كلمات التودد والاخلاص ، مفسداً بذلك تذكار أيام الهناء

وكانت بريجيت تنظر إلي حزينة وتقول : بالله دع هذا يا أوكتاف ، إذا كنت تضمر شخصيتين مختلفتين أفما بوسعك أن تدع الشخصية الطيبة وشأنها عندما تتبين فيك الشخصية الشريرة

وما كانت معارضة بريجيت لضلالي إلا لتزيدني استغراقاً في مرحي المزعج . وما أغرب طبيعة الانسان المتألم فهو يرى أبداً إلى إيلام من يهوى . وهل من داء أفظع من داء العجز عن التحكم في الذات

وما أشد ما تحتمل المرأة إذ ترى الرجل الذي ضمت إلى صدرها ينقلب هازئاً بلا مبرر بأقدس ما في ليالي الهناء من أسرار . وكانت بريجيت تتجلد فلا تهرب مني بل تبقى إلى جنبي منحنية على قطعة تطرزها وأنا ذاهب بهازلي القاسية أنال من الحب وأنزل به أوجع الاهانات وهي تنظر بصبر إلى فمي ولما يزل مرطبا بقبلاتها يتدفق تحقيراً وجنوناً

وكنت في الأيام التي تجتاحني فيها مثل هذه النوب أندفع إلى ذكر ما قضيته في أيام الفحشاء في باريس فأصورها كأنها خير حياة ، فأقول لبريجيت : ما أنت إلا قانتة متعبدة ، وهل لك أن تعرفي ما هي هذه الحياة فليس في الناس خير ممن لا تنالهم الهموم إذ يمارسون الحب دون أن يعتقدوا به

فكأني كنت أعلن لها بصراحة أنني لا أعتقد بالحب أنا أيضا

وتقول لي بريجيت عندئذ : إذا كان الأمر على ما تقول فما عليك إلا أن تعلمني ماأرضيك به ؛ ولعلي لست أقل جمالاً من معشوقاتك اللواتي تأسف لفراقهن . وإذا رأيت أنني محرومة من المعرفة التي كن يبديها لتسليتك على طريقة خاصة فأنا مستعدة لاقتباسها . لتكن معاملتك لي كأنك لا تحبني ودعني أحبك دون أن أعلن لك حبي . فما أنا أقل عبادة في هيكل الحب مني في هيكل الصلاة . قل لي ما يجب أن أفعل لتؤمن بما أقول

وأراها بعد ذلك تقف إلى مرآتها لترتدي في رائعة النهار ملابس السهرات والمراقص متظاهرة بالتدلل — وما هي من بنات الدلال — محاولة تقليدي فتضحك وتطفر في الغرفة قائلة : أتراني على ذوقك الآن : وأية خليلة من خليلاتك أشبه ؟ أفما بي من الجمال ما يكفي لاقناعك بامكان الاعتقاد بالحب ؟ . أفما تلوح علي دلائل من لا يبالون بالحياة ؟ وإذا بي أرى الأزهار المكللة ضفائر شعرها المعقوص ترتجف وهي مولية ظهرها لاخفاء تصنعها فأنطارح على قدميها قائلا :

— كفاك تقليداً إنك لتذهبين بعيداً في محاكاة من لم يتورع فمي عن ذكرهن أمامك . انزعي هذه الأزهار ، واخلعي هذا الثوب ، ولنغسل هذا المرح بدمعة صادقة ، دعيني أنسى ... إنني الولد الآبق فقد كفاني ما أتمثل من ماضي حياتي

غير أن هذا الندم نفسه كان جافياً إذ يبين لها ما لأشباح الماضي من رسوم متغلغلة في سريرتي . وما كان ما أبديه من اشمئزاز إلا ليعلن لها الدنس المروّع في الصور التي كانت تحاول تقليدها لإرضائي

وكنت أجيء إلى بيت بريجيت وقلبي طافح سروراً وأنا أقسم أن أنسى بين ذراعيها آلام أيامي الماضيات ، فأجثو أمامها مبدياً كل دلائل الاحترام وأزحف خاشعاً إلى سريرها كأنني أدنو من هيكل الصلاة ماداً إليها ذراعي والدموع تنهمر في عيني ، غير أنني كنت أراها عند ذلك تتفوه بكلمة أو تخلع ثوبها بحركة لها طابع خاص فينتصب أمامي فجأة خيال غانية تفوهت بمثل هذه الكلمة أو أتت بمثل هذه الحركة وهي تتجه إلى سريري

يا لك من روح مخلصة ؛ ويا للعذاب الذي تحملته عند ما كنت أفتح ذراعيّ لضمك إلى صدري فتسقطان — كأن لا حياة فيهما — على كتفيك الناعمتين ، وعند ما كانت تنطبق شفتاك على شفتي فأحس بأن نظرات الهيام في عيني وهي شعاع من نور الله تتراجع عن هدفها كأنها سهام هبت الريح عليها فلوتها في انطلاقها

أوّاه يا بريجيت ؛ لكم انهمرت لآلئ في أحداقك عند ما كنت تسقين براحتيك ذلك الحب الحزين الشغوف من معين أرفع بر وأصدق إحسان

وتوالت الأيام ما كدر منها وما صفا وأنا فيها ذلك المتقلب المتنقل من الجفاء والاستهتار إلى العطف والولاء ، ومن الكبرياء والقسوة إلى الندم والخضوع

وكان وجه ديجنه الذي تجلى أمامي أولاً كأنه ينذرني بما سأفعل لا يبارح توهمي فأناجيه في أيام شكوكي وبرود هيامي ، ولكم قلت في نفسي بعد توجيه التقريع إلى بريجيت مستهزئاً جافياً : لو أن ديجنه مكاني لذهب إلى أبعد من هذا

وكنت إذا ما تهيأت للذهاب إلى بيت بريجيت أنظر إلى وجهي في المرآة وأنا أضع قبعتي على رأسي فأقول : — أي شر في هذا ؟ أنا لي خليلة استسلمت إلى فاسق فعليها أن ترتضي به

وكنت أصل إليها والابتسامة على شفتي فأستلقي على مقعد متراخياً عن قصد لأنظر إليها تتقدم نحوي بعينيها الواسعتين وقد ملأهما الاضطراب فأقبض على راحتيها الصغيرتين لأذهب تائهاً في أحلامي

أيمكن لأي بيان أن يأتي باسم لشيء لا اسم له ؟ فهل أصف نفسي بطيبة القلب أم بسوء النية . أحزماً كان ما أفعله أم جنوناً ؟ ما يفيد التبصر ؟ فما علي إلا السير على السبيل المخطوط

وكان لنا جارة تدعى مدام دانيال ، عليها مسحة من الجمال وفيها شيء من الدلال وهي فقيرة تحاول الظهور بمظهر الغنى ، وكانت تأتي لزيارتنا وتلعب الميسر مضاربة معنا بمبالغ كبيرة فإذا خسرت صعب الأمر عليها فلجأت إلى الانشاد بصوت ليس فيه شيء من الجمال . وقد كانت هذه المرأة التي اضطرتها المقادير لتمضية حياتها في هذه الغابة الضائعة بين الجبال ظامئة إلى المسرات والملاذ ، فما كانت تتكلم إلا عن باريس حيث تذهب لتمضية ثلاثة أيام كل سنة وكانت تدعي أنها تتبع الأزياء الحديثة فتساعدها بريجيت بآرائها

وهي تبتسم شفقة عليها . وكان زوج هـذه المرأة موظفاً في دائرة تسجيل الأملاك فيذهب بهـا أيام الأعياد إلى مركز الناحية لترقص بكل ما في قلبها من شوق مع ضباط الفصيلة في قاعـة الحكومة . وكانت تعود من هـذه المراقص وقد وهنت قواها وازداد بريق عينيها فتهرع إلينا تخبرنا بما صادفت من نجاح وبما أثارت من أشجان . أما ما تبقى لهـا من الوقت فكانت تقضيه بمطالعة الروايات غير ملتفتة إلى شيء من مشاغل بيتها .

وكنت كلما التقيت بهذه المرأة أسخر بها لغرابة حياتها ، ولكم قطعتها في حديثها عن المراقص لأسألها عن زوجها ووالده وهي تكره الأول لأنه زوجها والثـاني لأنه من زمرة الفلاحين كما تقول . وهكذا لم يخل أي اجتماع لنا بها دون أن ينشأ بيننا خلاف شديد .

وخطر لي في أيامي السوداء أن أتحبب إلى هذه المرأة نكاية بريجيت فأقول لهذه : أفما ترين أن مدام دانيال تفهم معنى الحياة فهي ناعمة البال مرحة وأراها خير معشوقة يتمناها الرجال .

وهكذا كنت أبدأ بالثناء على هـذه المرأة فأصف ثرثرتها بسهولة البيان ودعواها العريضة بميل بديهي إلى التمتع بالحياة وأرى أن لا ذنب عليها إذا كانت فقيرة ما دامت تعترف بهذا الفقر إلى أن أقول أخيراً إنها لا تسمع مواعظ الناس ولا تبذل المواعظ لهم . ثم أطلب من بريجيت أن تتخذ هذه المرأة مثالا تحتذي به مدعياً أن هذا النوع من النساء يوافق ذوقي .

ولاحظت مدام دانيال أن في نظرات بريجيت بعض الأسى ، وكانت هذه المرأة طيبة القلب مخلصة إذا هي تخلصت من فكرة الأزياء التي كانت تثير حماقتها ، فأقدمت على عمل سداه الاخلاص ولحمته الحماقة إذ انتهزت فرصة اختلائها ببريجيت في نزهة لتقول وهي تعانقها ، إنها لاحظت ميلاً مني للتحبب إليها وإنني أسمعتها بعض كلمات لا مجال للارتياب في مقصدي منها وأضافت إلى ذلك قولها إنها عارفة بأني عاشق لامرأة أخرى وأنها تفضل الموت على إتيانها أمراً يهدم سعادة صديقة لها .

وقد رأت بريجيت أن تشكر مدام دانيال على صراحتها فذهبت هذه مرتاحة الضمير غير أنها لم تنقطع عن إرسال لحظاتها إليّ لتزيد في نكايتي

وبعد أن بارحتنا مدام دانيال عند المساء أخبرتني بريجيت بلهجة قاسية عما جرى في النزهة بينها وبين هذه المرأة . وطلبت إليّ أن أوفر عليها تحمل مثل هذه الاهانة فيما بعد قائلة : إنني لا أعلق كبير أهمية على مثل هـذه المهازل ولا أصدقها غير أنني أرى من الفضول إذا كنت تحبني أن تدع امرأة أخرى تشعر بأن محبتك لا تحتفظ بمستواها كل يوم .

فأجبتها ضاحكا : أيمكن أن يكون لهذا الأمر شأن عندك ؟ أفما ترين أني لا أقصد سوى الهزل لتمضية الوقت ؟ فقالت : أواه يا صديقي إن من البلية أن يرى الانسان ضرورة لتمضية وقته .

وبعد أيام عرضت عليّ بريجيت أن نذهب إلى قاعة الحكومة لمشاهدة مدام دانيال في رقصها فقبلت على مضض وبينما كانت ترتدي أثوابها قرب الموقد بدأت أوجه إليها اللوم لأنها تخلت عن مرحها القديم فقلت لها ، وأنا لا أجهل حالها : مالك يا بريجيت لقد أصبح القطوب مستحكماً في ملامحك فاذا دام الحال على هذا المنوال فلا بد من أن يسود الحزن

ساعات انفرادنا . لقد عرفتك من قبل أكثر مرحا وحرية وصراحة . وليس مما يوجب افتخاري أن أكون أنا علة هذا الانقلاب الطارىء على أخلاقك ، ومع ذلك فانى أتوسم فيك خلال أهل الزهد فكأنك خلقت لسكنى الدير

وكان ذلك اليوم يوم أحد فاستقللنا عربة وسرنا ، حتى إذا وصلنا إلى المتنزه رأت ريجيت رهطاً من صديقاتها بنات الحقول سائرات إلى مرقص أشجار الزيزفون . ونضارة الشباب تدفق من وجوههن فاستوقفت عربتها وحيت الفتيات ، وإذ استأنفنا السير أطلت من نافذة العربة مشيعة بأنظارها رهط الصبايا ، كأنها تتشوق إلى المرقص القديم ، وإذ توارين عنا رأيتها ترفع منديلها إلى عينيها

وصلنا إلى مرقص الحكومة فرأينا مدام دانيال تطفر فرحاً وحبوراً ، فبدأت بالرقص معها وكررت ذلك بصورة تستدعي الانتباه ، وكانت لها عبارات الاعجاب فكانت تجيب على مجاملتي بمثلها . وكانت ريجيت تتبعها بأنظارها أنى سرنا . ويصعب على أن أصف ما شعرت به فى ذلك الحين ، إذ تمازج سروري بأنى لما تجلى لى على سيماء ريجيت من غيرة فكأن هذه الغيرة كانت تحفزنى إلى التمادى فى إضرامها

وتوقعت بعد عودتنا أن تلجأ ريجيت إلى لومي ولكنها بقيت ممعنة فى جمودها وصمتها فى اليوم التالى وما بعده ، فكانت تستقبلنى بقبلتها المعتادة ثم نجلس وكل منا مستغرق فى نفسه فلا نتبادل الكلام إلا قليلا . وفى اليوم الثالث عيل صبر ريجيت فاندفعت تهاجمى بعيشها المرقالة : إنها لا تجد ما تبرر به معاملتى ولا يسعها إلا الاعتقاد بزوال حبي ؛ ثم أعلنت لى بصراحة أنها أصبحت لا تطيق هذه الحياة وقد عزمت على الالتجاء لأية وسيلة تنقذها من أطوارى الشاذة ومعاملتى الباردة . ورأيت الدموع تنسكب من عينيها بغزارة فكدت أجثو أمامها لأطلب عفوها ، غير أنها استمرت على إرسال تقريعها متفوهة بكلمات ذهبت إلى كبريائى فجرحتها وثار ثائرى فأجبتها بكلمات من طراز كلماتها حتى اتخذت مناقشتنا شكل جدال لا هوادة فيه . فقلت لها : إن من المستغرب ألا يكون عندها من الثقة ما يجيز لي إتيان أبسط الأمور فلا بد إذاً أن يكون هنالك سبب آخر غير السبب الذي تتمسك به لأنها تعلم أننى لا أبالي بمدام دانيال فليس تقريعها لي إلا الاستبداد بعينه ؛ ومع ذلك فاذا كانت متعبة من هذه الحياة ففى وسعها أن تضع حداً لها بالفراق .

فقالت : « ليكن ما تقول لأنك تنكرت لعيني منذ بذلت لك نفسي ، فقد لعبت دورك بمهارة لاقناعى بحبك لى ؛ وها قد أتممت هذا الدور فلا تجد من الأعمال إلا ما تسيء به إليّ . لقد ارتبت فى إخلاصي لكلمة واحدة مرت على أذنك ولاحقتنى بتحميل نفسى ما توجهه من إهانة إليها . لقد تبدلت فما أنت الرجل الذى أحببت

— إنى لا أجهل نوع آلامك وأراها ستتجدد لكل خطوة فى حياتى وسوف لا يطول الأمر حتى أحرم حق التكلم مع أى مخلوق سواك فأنت تتظاهرين باحتمال سوء المعاملة لتجيزى لنفسك توجيه التقريع إليّ وما تشكين استبدادى إلا طلباً لاستعبادى . أما وقد أصبحت أشوش عليك

حياتك فاستعيدى السكينة لها . إنك لن تريني بعد الآن

وافترقنا على غضب ؛ ومر النهار دون أن أراها

وفي اليوم التالي شعرت عند انتصاف الليل بحزن لم أجد لاحتماله سبيلا فذرفت الدموع سخينة وأخذت ألوم نفسي وألعنها قائلا : إن من الجنون المطبق أن أعذب أشرف النساء وأطيبهن قلبا . ثم نهضت راكضاً إلى بيتها لانطرح عند قدميها

دخلت الحديقة وإذ رأيت النور من نافذة غرفتها ساورتني الشكوك فيها فقلت : إنها لاتنتظرني في مثل هذه الساعة ومن يدرى ماتفعل ؟ لقد تركتها أمس غارقة بدموعها ولعلني أراها الآن مشغولة بالغناء غير مبالية بي وغير شاعرة بوجودى، بل لعلها ترتدي أثوابها وتجمل وجهها كتلك المرأة ... لأدخلن إذن متجسساً فأطلع على الحقيقة

وتقدمت على حذر وكان باب غرفتها مفتوحاً فتمكنت من مشاهدتها دون أن تراني

وكانت جالسة إلى خوان تكتب في مجلد المذكرات التي كانت مبعث ارتيابي بها . وكان في يدها اليسرى علبة صغيرة من الخشب الأبيض تنظر إليها من آن إلى آن بارتعاش عصبي ظاهر

ولا أدرى أية روح مروعة كانت تسود هذه الغرفة في جوها الهادىء ، وكانت رفوف المكتب مفتوحة وقد صفت عليها رزم الأوراق كأنها رتبت في برهة وجيزة .

ودقت الباب فنهضت وأقفلت أدراج المكتب وأتت إلى والابتسام يعلو فمها قائلة :

— نحن طفلان يا أوكتاف ، ياصديق . وما كان لعمرا كنا من سبب ولا ممنى ، ولو لم تأت إلى لذهبت إليك في هذا الليل . اغفر لي فالذنب ذنبي أنا . إن مدام دانيال ستأتي غداً لتناول الغداء فلك أن تفتح سبيلا لندمى عما تسميه استبداداً في معاملتي . إن سعادتي متوقفة على حبك لي فلننس ما مضى ولنحتفظ بسعادتنا

(يتبع) فيلكس فارس

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سيرة السيد عمر مكرم

لمؤلفها الأستاذ محمد فريد أبو حديد

سيرة جليلة من سير الزعامة الشعبية وصفحة رائعة من صحف الجهاد القومى خلال القرن الثامن عشر حتى فاتحة عهد محمد على عند ما اجتمعت كلمة الشعب على اختيار مليكه المحبوب جد الأسرة الملكية الكريمة

والكتاب مزين بالصور التاريخية

ثمنه عشرة قروش عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسى رقم ٩ ومن المكاتب الشهيرة

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجيم رقم ٧ }